من الادب الروسي

العطف ...

للكاتب الشهير ن . ف غوغل

١٨٠٩ — ١٨٥٢

نقلها كامل محمود حبيب

هو كاتب مغمور في أحد دواوين الحكومة لم يحبُهُ الله بميزة خاصة ، فهو قصير ، احمر الشعر ، ضيق البصر ، أصلع ، مفضن الوجنات ، ممتقع اللون . . . ذلك هو أكاكي أكاكيفتش الذي لا يعلم أحد متى عيّن في وظيفته ولا كيف كان ذلك . لقد كان ذلك منذ زمان حتى ليخيّل الى الناس ان هذا الرجل قد خلق — منذ ان كان — في هيئته وجلسته وعمله . وكان الحُجّاب والخدم ينظرون اليه كما ينظرون الى ذبابة تتخبط في الهواء فلا يعبأون به ، وكان الرؤساء يصبون عليه كثيراً من الظلم الهادىء في غير رفق وهو راضٍ ، والمساعدون يلقون أمامهُ حزم الاوراق قائلين « حبّر هذه من فضلك ! » أو « هاك عملاً سهلاً ! » او . . . فينشر هو هذه الاوراق أمامهُ صامتاً لا يرفع عنها بصره ، ثم يندفع في عمله . وكان الشبان من زملائه يهزأون به ويتندّرون عليه ، ثم هم يتناولونه بالأقاصيص المضحكة ، يقصونها أمامه ومن خلفه في تبجّح ، فيقولون « ان صاحبة الدار العجوز تضربهُ ، وهو يحبها وسيتزوج منها . . . » ثم يسألونهُ عن يوم الزفاف ، ويقذفونهُ بقطع من الورق أو ببعض حبات الأرز وهو في مكانه صامت لا يتألم ولا يتململ ولا يغضب كأن الحديث لا يمسهُ . لم يكن هذا ولا غير هذا ليحول بين أكاكي وبين أن يندفع في عمله لا يتبلّد ولا يخطىء . وحين يجذبهُ أحد الماجنين من ذراعه لا يزيد على ان يقول « دعني وحيداً ! لماذا تريد انْ تزعجني ؟ » يقولها في رنات تبعث في النفس الالم والشفقة ، والعطف في وقت معاً

لم يكن أكاكي أكاكيفتش مثلاً أعلى من أمثلة الجد في العمل والدأب والنشاط فحسب ، بل كان عاشقاً لما يعمل . فهذه الأوراق التي تنفث في روح الكاتب السأم والملل كانت تفتح أمام عينيه دنيا . . . دنيا جميلة مفعمة باللذات . وكان حين يجلس الى عمله ، يرتسم على وجهه أثر السرور والغبطة ، فهو يبتسم حيناً ، وحيناً يغض عينيه ويحرّك شفتيه حتى يستطيع الناظر اليه أن يتنبأ ببعض

ما يكتب . . . وقضى أكاكي عمره مصوراً بين أوراقه لا يتحول ولا يترقى ولا يكافأ وأراد أحد رؤسائه — ذات مرة — ان يرفعه فوق مرتبته ، فبعث اليه بوثائق يحيل فيها قلمه ، فاوتيك وأجهده العمل ، فردها قائلاً « ألا تعطني بعض الوثائق لأحبرها . . . ؟ » فما كان له ان يحسن عملاً غير هذا . وهكذا كتب عليه ان يظل في عمله الاول ما عاش

وسيطر على أكاكي حبهُ لما يعمل فشغله عما عداه . فأهمل ملابسه : فلقد حال لون بذلته الخضراء الى آخر أربد زريّ ، و (زيقهُ) الضيق المنخفض تبدو خلالهُ رقبته طويلة رقيمة مضحكة ، وسترته قد تناثرت عليها أنواع القش وقطع الخيط هنا وهنا ، ثم هو لكثرة ما يضرب في الارض على غير هدى تسقط عليه الفضلات الملقاة من النوافذ فلا يزيلها، فتلتصق بقبعته وملابسه . وكان هو على غير ما انطبع عليه زملاؤه ، فهم كانوا يحدّثون فيما يرون يلتمسون فيه لذة ومتعة ، أما هو فكان شارد البصر لا يثبتهُ على شيء . وأمام عينيه — وهو في طريقه — ورقة من أوراقه ما تبرح منشورة يريد ان يحبّرها فلا يحس انهُ في عرض الطريق الا حين يشعر بأنفاس حصان قوية تداعب وجههُ . وحين يخلو الى نفسه في حجرته ، يجلس الى طعامه فيلتهم الحساء وقطعة اللحم وأخرى من البصل لا يذب عنها الذباب او البعوض او . . . مما يتهافت على مثل هذا الطعام القذر ، ثم هو لا يشغلهُ نوع الطعام ولا جودة الطعم ، ثم يقوم الى بعض وثائق يكتبها ، فان لم يجد فهو يكتب لنفسه وثيقة من نوع ما كتب في نهاره

وحين تنقشع غيوم سانت بطرسبرج وتبدو السماء زرقاء جميلة ، يخرج كل موظف يتناول عشاءه كلٌّ يُنفق من سَعته ، ويطلب كل عامل الاستجمام ، فينطلق الجميع يمتهون الدقات يزجون بها فراغهم : فهذا الى ملعب ، وهذا الى الطرقات ، وهذا الى جماعة من صحابه يتنازلون الشايات أو يلعبون الورق او يملأون الدنيا ضجيجاً ، حين ينطلق كل هؤلاء الى التسلية والمرح تجد اكاكي اكاكيفتش جالساً في حجرته يحبّر ورقة ثم . . ثم يذهب الى فراشه وهو يقول « ترى ماذا اكتب غداً ؟ » تلك حياة رجل قنع بدريهمات ضئيلة تسد رمقه ثم هو لا يملك غيرها

***

وفي سانت بطرسبرج عدوٌّ لدود لكل رجل لا يبلغ دخله اربعمائة روبل في السنة ، ذلك هو الجليد المتساقط من الشمال . هذا ولو ان كثيراً من الشبان يقولون انهُ صحّي . وفي الساعة الثامنة صباحاً حين يهرع كل موظف الى عمله يكون البرد قارساً فينطلقون الى دواوينهم مهرولين وقد تلففوا في معاطفهم ، ثم هم يدفئون أرجلهم في حجرة البواب . أحسّ اكاكي اكاكيفتش — هذا الصباح — ان البرد ينصب انصباباً على كتفيه وظهره وهو يسرع الى عمله، فتراءى لهُ ان يدا ابلى قد عملت في معطفه، فراح يفحصهُ فوجد به ثقوباً عند الكتفين والظهر . لقد كان معطفه

هذا مدة سخرية وهزء بين رفاقه، فهذه ازيقة تنفصل وبدأ روبدأ الا انه يجتزىء منه ليرقع ثقوباً هنا وهناك ترقيعاً مهلهلاً وفي غير دقة. وحين رأى اكاكي من معطفه ما رأى بدا له أن يعطيه الى بتروفتش الخياط وهو أعور ذميم الخلق يدر عليه عمله ارباحاً ضئيلة لانه يصلح سراويل كثير من فقراء الموظفين وصغارهم، وهو سكير عربيد، يفرط في السكر في ايام الآحاد والاعياد حتى يذهل عن نفسه

وانطلق اكاكي الى بتروفتش وهو يحدث نفسه « ترى كم يريد مني بتروفتش ؟ لن ادفع اكثر من روبلين . . . ! » لقد كان الباب مفتوحاً وزوجة بتروفتش تطهي سمكاً وقد انبعث الدخان فالمقد سحباً كثيفة في نواحي المطبخ، فأظلم المكان، ومرّ اكاكي في صمت فما شعرت به المرأة، وأزعج الرجل ان يرى بتروفتش مضطرباً حزيناً وهو كان يأمل ان يراه هادئاً مستشيراً لبال منه مأرباً. انه حين يكون كذلك يمعن في السهولة والتسامح فلا يطلب ثمناً، ثم هو يخجل امام زبائنه ثم يشكرهم رغم ما يبدو على وجه زوجته من غضب، ان كانت هناك. وأراد اكاكي ان يمكس على عقبيه غير ان بتروفتش كان قد سدد اليه نظره، فقال « عم مساء يا بتروفتش؟ » قال « عم مساء، سيدي ! » قال « لقد أتيتُ . . . » واضطرب لسانه فما استطاع ان يتم حديثه، فقال بتروفتش « لترى . . . » وأخذ يقلب المعطف بين يديه في امعان واكاكي يقول « لقد أتيتُ، يا بتروفتش . . . المعطف . . . القماش — كما ترى — متين . . . ان الاقذار التي تراكمت عليه تركته يبدو بالياً . . . ولكنه متين . . . هو بحاجة عند الكتفين والظهر . . . » ما زال بتروفتش يفحص المعطف ويهز رأسه، ثم تناول حفة السعوط ينشق بعض ما فيها وقد الق المعطف جانباً، ونشر الخياط المعطف على عينيه مرة اخرى ثم الفاه لينشق ثانية قليلاً من السعوط وهو يقول « لقد بلي القماش تماماً . . . » واستشعر أكاكي شدة العنفة في قلبه « بتروفتش، لماذا ! . . . انه ثقب صغير عند الكتف . . . لا إخالك تعجز عن أن تجد قطعة . . . » قال الآخر في هدوء « عندي قطع كثيرة غير ان القماش لا يحتمل الترقيع » قال « ولكنك تستطيع . . . ! » وأصرّ بتروفتش « ان هذا القماش تعصف به الريح الضعيفة اذا هبت عليه »

واستمعقه أكاكي « انك تستطيع، يا بتروفتش . . . » قال « مستحيل، لا يمكن . . . واذا جاء الشتاء فرقعةُ قطعاً تغطي بها رجليك فأن الجوارب التي جاء بها الالمان الى بلادنا ليستلبونا من كثير من مالنا لا تدفىء، اما المعطف فلا بد ان تشتري آخر جديداً »

وظلت الكلمة الاخيرة « جديداً » تضطرب في عيني أكاكي وقد امحى كل ما أمامه سوى حق السعوط وقد رسمت على غطائه صورة قائد عظيم، الصقت الى جانبها قطعة من الورق . . . وانطلق يهذي « جديد ؟ انا لا أملك شيئاً، واذا كان لا بد، فكم . . . » قال بتروفتش « مائة وخمسون . . . » ثم ضغط على شفته وحدق الى الرجل الداهل امامه بصره ليستشف

الى هذه الكلمات في نفسه . فصاح اكاكي في فزع « مائة روبل وخمسون ثمناً لمعطف ! » لقد صاح . . . صاح اكاكي المسكين لاول مرة في حياته، لقد خرج عن هدوئه حين افزعته الصدمة . فأجاب بيتروفتش « نعم ، ولا اقل من ذلك ، ونوع أرقى يكلفك مائتي روبل » قال الرجل « بيتروفتش ، ارجو ان تبذل جهدك فأعيش بمعطفي هذا زمناً . . . » قال « لا فائدة احمل واد خرا » خرج اكاكي حزيناً وبيتروفتش جالس يبتسم لانه استطاع ان لا يزل عن رأيه

* * *

سار اكاكي مأخوذ اللب ، مشتت الخاطر، مختلج العقل ، يحدث نفسه « هذا جميل ، حقاً ، انا لم افكر في انهُ يكلفني . . . كيف ؟ أهذه هي النهاية ؟ عجباً ! » ثم سمت برهة واندفع « عجباً ! من يستطيع ان يفكر . . . ؟ اي حادث هذا ؟ » واختلط عليه الامر فسار الى داره . وبينا هو يضرب في الارض ذاهلاً انحط عليه دخانٌ مدخنة بيت فقذف عليه مكتل من الجص من منزل يتهدم ، وماكان هو ليشعر بهذا لولا ان الشرطي زجر عليه بالفاظ قاسية ردت اليه بعض عقله ، فرأى ما حل به، فانطلق مسرعاً الى داره .هنا . . هنا في هذه الحجرة المظلمة استطاع ان يتسرعل عينيه جملة حاله في هدوء ومنطق، فراح يحدث نفسه « انا لا استطيع ان اقنع بيتروفتش اليوم بما يجب ان يكون . انهُ . . . لعل زوجته قد قست عليه ، وسأذهب اليه يوم الاحد ، بعد مساء السبت الطيب ، سيكون ثملاً ، لا هو بالنائم ولا هو باليقظ ، ثم هو يكون في حاجة الى دريهمات يشتري بها قدحاً من خمر ، وزوجتهُ تأبى عليه ذلك . . . » وفي يوم الاحد التالي انطلق اكاكي يراقب دار بيتروفتش عن كثب، وحين رأى زوجتهُ تغادر الدار، دلف هو الى بيتروفتش ليراه ثملاً غير انهُ استطاع ان يذكر ما يريد صاحبهُ « ألا تستطيع ؟ يجب ان تشتري آخر جديداً . . . » فوضع اكاكي في يد صاحبه بعض دريهمات ، فقال هذا « شكراً لك ياسيدي سأشرب نخب صحتك ، لا يزعجك امر المعطف . سأصنع لك معطفاً جديداً ، انت تستطيع ان تطمئن الى ذلك ، سأبذل جهدي . سيكون معطفك الجديد من أحدث طراز . . . »

وطرب اكاكي لما سمع ، ولكن أنّى له المال ؟ لقد ادخر اربعين روبلاً في سنوات ، فكيف يدفع ثمن المعطف وهو يحتاج الى سراويل جديدة وثلاثة قمصان ، والحذاء من ورائه يتبعهُ يريد منه ديناً قديماً . ماذا تفيد الدريهمات القليلة التي ادخرها ؟ وانتهى بعد حين الى امر : سيخفض من نفقاته مدى سنة .فألغى شاي المساء ، واستغنى عن الشمع، فاذا اضطر الى عمل في الليل انطلق الى صاحبة الدار يصل ما يريد على ضوء مصباحها ، وهو يسير على اطراف اصابعه خشية ان يبلى الحذاء ؟ ثم هو يخلع ملابسهُ الداخلية عند النوم لتظل نظيفة فيدخر ماكان ينفقهُ في غسلها

وشق هذا على نفس الرجل — بادىء الامر — ثم خف رويداً رويداً ، واستطاع ان

يقضي بعض الليالي طاوياً ، ثم هو يبدو ميسراً طروباً كأن صديقاً برافقهُ يسرّي عنهُ بعض ما يؤلمهُ ... ذلك هو خيال المعطف الجديد . وزرقرق ماء الحياة في وجهه لأنهُ اصبح يرمي الى غرض جميل في الحياة ... ذلك هو المعطف الجديد وتوارى الشك والاضطراب من دنياه لتطوف برأسه الافكار السارة ، تبعث في نفسه النشوة والطرب ، وتلمع بها عيناه . وشغلتهُ الفكرة فأخطأ بعض مرة فيما يكتب ، ولكنهُ كان يرتد الى خطئه يصلحهُ وهو يقول « اوه ...! » ثم هو يختلف الى بيتروفتش كل شهر مرة يحدثهُ حديث المعطف ... ومرت الايام سراعاً تحمل له على جناحيها بشرى ... بشرى جميلة : لقد زاد راتبهُ عشرين روبلاً . أكان ما عمل الرئيس عن علم بما هو فيه ، أم هي المصادفة الجميلة ؟ ومهما يكن الامر من شيء ، فهو الآن يستطيع ان يستحث الخياط حين يدفع له شيئاً ... وبعد اسبوعين احضر بيتروفتش المعطف الجديد . ما أجمل ذلك الصباح الذي رأى فيه أكاكي معطفهُ الجديد ! لقد كان البرد لاذعاً ، والسحب تكاثف تنبيء بانقلاب عظيم . وأثبت بيتروفتش — بما صنع — انهُ خياط ماهر يستطيع ان يحيك فيجيد كما انهُ يستطيع ان يرتق فيحسن ، ثم ألقى المعطف على كتفي أكاكي وهو يبسم ابتسام الظافر ويقول « ما أجمل ، ما أجمل ! » وحين استقر المعطف على كتفي أكاكي دفع عشرين روبلاً وانطلق الى عمله يردد بصره في المعطف بين كل خطوتين وهو يبسم في قناعة ورضا لانهُ احس بالدفء والغبطة في وقت معاً ، اما بيتروفتش فقد تبعهُ عن كثب يستمتع بلذة النظر الى صنعته التي رفعتهُ من رانق مهين الى حائك ماهر . وبلغ أكاكي ديوانه فخلع المعطف وأعطاه للبواب وهو يوصيه ويحذره . وما لبث الخبر ان دوى بين زملائه فاندفعوا يهنئونهُ وهو يشكرهم ويبسم لما يقولون ، وتقاطروا عليه فبدت عليه الحيرة فما استطاع ان يقول شيئاً . واقتادهُ زميل قائلاً لا بأس ، انني ادعوكم الليلة الى منزلي احتفاء بمعطف أكاكي الجديد ، وعجيب ان يكون هذا اليوم هو عيد ميلادي

***

وحاول أكاكي الامتناع فأراده اصحابه على ان يذعن ، وسُرّ هو حين وجد الفرصة تسنح فيستطيع ان يرفل في معطفه الجديد هذا المساء بين زملائه . وحين احتوتهُ حجرته أخذ يلتهم طعامه وهو يقلب بصره بين معطفه الجديد ومعطفه القديم ويبسم ... لم يجلس — بعد هذا — الى اوراقه يحبرها ، ولكنهُ استلقى على فراشه ينتظر المساء ... وحان الموعد فانطلق يقطع طرق الناحية التي يسكن فيها وهي ضيقة مظلمة قذرة ، وحين اقترب من دار صاحبه رأى الحياة تدب في العالم : فالطرقات واسعة تسطع في نواحيها الانوار ، والناس يجيئون ويذهبون في نشاط ، والعربات تنطلق هنا وهناك ، فراح يحدّق في كل شيء في دهشة ، فهو لم يرَ شيئاً من

هذا منذ سنوات . والقى دار صاحبه جميلة تلمع منها الاضواء ، وموج الزدهة الواسعة المزدانة فاختلطت الاصوات في مسمعيه ، ورأى الخادم ينطلق من الحجرة المجاورة يحمل الاقداح الفارغة ، فعلم ان رفاقه قد تناولوا اول اقداح الشاي . واستطاع اكاكي — وقد ادخله ما رأى — ان يخلع معطفه ويضمه بهدوء على المشجب ، ثم هو يدلف الى الحجرة ليرى صحابه في ضجيجهم ومرحهم ، وليرى الشموع متأثرة حول الصدلعب الورق فيقف مضطرباً... وأحس صاحب الدار بالزائر يدلف الى الحجرة فانطلق اليه يحييه ويلتمس له مكاناً فالتفت الجمع يرحبون به ، ثم ما لبثوا ان عكفوا على ورقهم وهو يتأمل فيما يصنعون . ومرت الساعات فترى التعب في مفاصله ليتركه ناعساً او كالنائم . وأراد ان يخرج فاضطره رفاقه ان ينتظر ليتناول قدحاً او قدحين من (الشمبانيا) فأدغن والزمن يمر . . . وخشي ان تغلظ عليه صاحبة الدار في اللوم فانسل من بين صحابه يطلب المعطف ، ثم انطلق . . .

لقد ابتدأت الحياة تنضح اجفانها في هذا الحي الصاخب وهو يسير ويئد الخطو لشوان ثم ما لبث ان هبط ذحية ماتت فيها الحياة فلا هو يرى ضوءاً ، ولا هو يرى السماء . وبدا الظلام في عينيه اسود مظلماً وقد نشر الضباب جناحيه فزيد الظلام حلوكة . ورأى — وهو يعبر ميداناً هناك — بصيص نور مصباح الشرطي كأنه في اقصى الارض وهو على بضع خطوات منه . ورأى له — وقد اضطربت اعصابه وزلزله الرعب — ان يضض عينيه وهو يعبر الميدان ، وحين فتحهما ليرى مكانه من نهاية الميدان وجد امامه رجالاً مقنعين يقتربون منه فتفزع ، غير ان واحداً منهم انقض عليه وهو يقول « هذا معطفي ! » وأراد ان يستصرخ الشرطي فكمه آخر باحدى يديه وهو يقول « أفتستطيع ان تفعل ؟» وأحس اكاكي بالمعطف يسلب منه ، وشعر بركلة تدحرجه على الثلج في قسوة فتفقده صوابه وحين افاق استشعر لذع البرد في جسمه فأيقن انه قد فقد معطفه الى الابد فصاح ولكن صوته المبحوح ما كان ليصل الى اذني الشرطي الواقف هناك ، فانطلق هو اليه مغيظاً يغلظ له في القول على ان يسلب معطفه وهو نائم على بضع خطوات منه . واجابه الشرطي في هدوء « انا لم ار غير اثنين يمران قريباً منك ظننتهما بعض اصدقائك . وانا لا استطيع أن اساعدك فلتذهب في صباح الغد الى الضابط لعله يستطيع ان يجد لك معطفك ! »

وبلغ اكاكي منزله مهموماً يضطرب وقد تشعث واغبر . ووقع لنظر صاحبة الدار عليه تفزعت مما رأت ثم راحت تسأله فانطلق هو يحدثها حديث المعطف المفقود ، فنصحته بأن يلجأ الى مفتش عرفته لغيطاً يقظاً وهو يستطيع ما لا يستطيعه الشرطي والضابط معاً ، ووجد هو فيما قالت حلاً لما اضطرب في خياله ، ولكنه قضى ليله قلقاً يتقلب في فراشه ما يهدأ ولا يستقر . . . ثم يكر الى المفتش فألفاه ما يزال نائماً ، وعند الحادية عشرة وجده قد غادر المنزل ، وعند الغداء

اراد ان يرى المفتش فتح ، وكان صبره قد نفد فاندفع هائجاً يقول انهُ قد جاء من لدن أحد الدواوين الاميرية في امر خاص ولا بد ان يرى المفتش . . . هناك جلس يقص قصة المعطف المسلوب . وبدل ان يعنى المفتش بأمره راح يسألهُ « لماذا تأخرت في الرجوع الى دارك ؟ هل كان المنزل الذي قضيت فيه ليلتك سيء السمعة ؟ . . . » واضطرب اكاكي لما رأى من اهمال امره فخرج من لدن المفتش لايدري ماذا . . . ؟ لقد غاب عن عمله لأول مرة في حياته . وفي اليوم التالي بدا في معطفه القديم حزيناً ممتقع اللون ، زري الهيئة

ولست قصة المعطف المسلوب قلب كل زميل له في شدة وعنف ، وان كان بعضهم قد خرج عن انسانيته حيناً فتندر عليه ثم اجمعوا امرهم على ان يخرجوا جميعاً لاكاكي عن بعض مالهم وعزّت الشفقة واحداً منهم فراح ينصح له ألاّ يركن الى الشرطة والاّ يطمئن الى وعودهم فهم لا يستطيعون شيئاً ، غير انهُ يستطيع أن يلتمس المعونة عند رجل عظيم سماه له ... عظيم من عظماء المدينة لا تستطيع ان تقول باسمه او ان تشير الى مركزه ، وكل ما تستطيع ان تقوله إنهُ عظيم درج في مناصب الدولة . إنهُ يستطيع ان يساعد المسكين غير أن منصبهُ ...

قد يظن الرجل ان مظهر العظمة هو العظمة ، فيريد الناس على احترامه ويضطر مرؤوسيه ان يحيوه في خضوع وذلة ثم هو لا يسمح لمظلوم ان يلج حجرته او ان يرفع اليهِ شكاته دون واسطة ليبدو في الاعين عظيماً وتسري العدوى فيمن هو اقل منهُ فيقلده فيصبح العمل صورة من عمل ، ويذهب الضعيف ضحية العظمة الكاذبة ... وهكذا اراد صاحبنا ان يبدو عظيماً فقسا وقسا ... القسوة الجاهلة العمياء ، فساد عمله جوٌّ من القسوة لتلد النفاق والخداع في رؤوس مرؤوسيه وعملهم حين سكن الرعب في قلوبهم ، فهم اذا رأوه يدلف اليهم قاموا اليهِ في ذلة وخضوع يحيونهُ ويتملقونهُ ، فاذا غادرهم سلقوه بالسنة حداد . وهو . . . هو العظيم ما كان ليبدأ محدثه الاّ بالفاظ جافة نابية « كيف تجرؤ ؟ أتعلم من هو الذي تحدثه ؟ أتعرف تماماً من هو الرجل الذي تقف انت امامه ؟ » لقد كان طيب القلب رفيقاً يعطف على اصحابه ويحسن اليهم غير أن منصبه (العظيم) قد عصف بانسانيته وأريحيته . وهو بين زملائه رجل لا يعدو ان يكون رجلاً ، وهو بين رؤسائه ومن يرتفعون عنهُ درجة واحدة ذليل خاضع لا يستطيع ان ينطق حرفاً . هنا وهنا فقط هو رجل ضعيف خامل يستثير الشفقة . والرحمة في القلوب الصلبة . لقد كانت نفسهُ تحدثهُ بأن يندفع في الحديث وان يفشي المجتمعات برنهُ عنها بعض ما يناله من عناء العمل ، ولكنهُ كان يخشى ان ينفض من هيئته فيصمت ويستكين ويزوي في داره . لهذا ولهذا وحده بدا فيهِ الرجل الصلب الشديد

هذا هو الرجل العظيم في بلادنا ، ولمثل هذا الرجل الطلق اكاكي يطلب الانصاف والعدل .

لقد وجده في حجرته يجلس الى صديق قديم يحدثهُ ، فطلب الاذن بالمثول بين يديه ليفحص امامه جملة حاله ، وحين علم العظيم طرفاً من امره ، قال « من يكون هذا ؟ » قال الحاجب « هو موظف في احد دواوين الحكومة يا سيدي . » قال القائد العظيم « فلينتظر ، فانا لا اقابل احداً الآن » لقد كذب الرجل العظيم . فهذه هي الساعة التي يستطيع ان يقابل فيها هذا الرجل المسكين وغيره . ولبث المسكين طويلاً ينتظر . ودخل كاتم سر القائد العظيم يتأبط حزمةً من الورق ، فقال لهُ « ان كاتباً ينتظر هناك ، فدعهُ يدخل » وحين وقع بصره على أكاكي قال له في قسوة « ماذا تريد ؟ » وبدا اكاكي الجبان ، جباناً يرتعد فما استطاع ان ينشر القصة الا في صعوبة . . . وتمثلت الاهانة والاستهتار في عيني القائد العظيم تحملان اليه على لسان رجل ضعيف جاء يحمل شكاته ويستعينهُ على امر اهمهُ ، فقال في غلظة وجفاء « سيدي ، ألا تعلم الطريق الذي يجب ان تسلكهُ لتبلغ ما تريد ؟ لماذا جئت تنشر قضيتك امامي مباشرة ؟ الا تعلم ان شكايتك لا بد ان تقدم اولاً الى رئيس الكتبة ، ومنهُ الى رئيس القسم ، ومنهُ الى كاتم سري ، وفي النهاية تصل اليّ ؟ » واستطاع اكاكي ان يتمتم « لقد ظننت ياسيدي — ان اعرض عليك امري دونهم لانك وحدك تستطيع ان تعطف عليّ ، اما هؤلاء جميعاً فهم . . . هم اناس لا غناء فيهم . . . ! » قال العظيم في غيظ وحدة « ماذا ؟ ماذا تقول ؟ أتمثل هذا أنت؟ أنى لك هذه الخواطر ؟ أبهذه ، الصين تنظرون ، انهم صغار الناس ، الى رؤسائكم » واستمر في ثورته « أتعلم من هو الذي يحدثك ؟ أتعرف تماماً الرجل الذي تقف أنت أمامه ؟ » ثم دق الارض برجله في شدة وكانت كلمات الرجل كأنما تصفعهُ هنا وهنا فذهل فترع يكاد يهوي الى الارض لولا ان حملهُ البواب في ذهوله الى خارج الحجرة . وابتسم القائد العظيم لما احدثتهُ كلماته القاسية من اثر في نفس المسكين ، وابتسم مرة اخرى حين رأى سمات الرعب تبدو على وجه صاحبه الجالس الى جانبه . . . هذه هي العظمة في رأس العظيم الأحمق . . .

لقد سقطت كلمات العظيم على اكاكي المسكين رجوماً رجوماً فقدد رشده ، ولكنهُ استطاع، بعد لأي ، ان ينكفئ في طريقه الى الدار مستنداً الى جدار والرياح تتناوحهُ . . . رياح سانت بطرسبرج الباردة ، فما بلغ الدار الا وقد انصابهُ انصب وآذاه البرد فانطرح على فراشه لا يعي . . واشتدت وطأة المرض فانقلب حمى راجفة تعرك الرجل عركاً ، وجوّ سانت بطرسبرج الغادر المتقلب يقويها ، والذين الى جانبه يفقدون الأمل رويداً رويداً . وأسرع المريض المسكين الى نهايته وهو يهذي « المعطف . . . سيدي القائد . . . يتروفتش . . . المعطف . . . ! » ثم تنفس النفس الاخير . مات الرجل لا يملك شيئاً ولا يجد من يخلفه سوى صاحبة الدار العجوز . . .

لقد انطوت صفحة أكاكي أكاكيفتش دون ان يشعر به انسان في سانت بطرسبرج

ومضت اربعة ايام وجاء الحاجب يريد أكاكي لأن الرئيس قد أصرّ على عودته ، ولكنهُ ارتد الى رئيسه بحمل خبر موت الرجل . . . هكذا علم زملاؤه إن واحداً منهم قد مات . . .

***

من ذا يستطيع ان يصدق أن هذه لم تكن نهاية أكاكي أكاكيفتش ، وانهُ قد قدّر لهُ ان يبلغ أوج الشهرة بعد موته ؟ لقد برزت روحه الوادعة عاصفة تريد ان تنتقم ، وطار الخبر ان شبحاً يتربص بالناس عند قنطرة كالنكن ، ينتزع منهم معاطفهم ، لا يفرق بين كبير وصغير . لقد رأى احد زملاء أكاكي في هذا الشبح أكاكي نفسه ، فاضطرب وذعر وفرّ هارباً والشبح يتهدده . واضطربت المدينة جميعاً ، فأصرّ الشرطة على أن يقبضوا على الشبح وبعاقبوه ليكون مُثلة وعظة و . . . واستطاع شرطي أن يلتقط الشبح وهو يستلب معطفاً من صاحبه ، وهو حين فعل صاح ينادي بعض رفقائه ، فأدركه شرطيان فحاولا تمانه ، وحين أمسكا به أطلقهُ الاول لينشق بعض السعوط . ولكن الشبح استطاع ان ينثر ما في حق السعوط ، في أعين الثلاثة وانطلق هو . . . انطلق ليبث الرعب في قلوب الناس . . .

أما الرجل العظيم . . العظيم الذي قاعل أكاكي فقد أحسّ بالشفقة تستيقظ في قلبه بعد ان خرج أكاكي من لدنه ، ولكن منصبه أراده على ان يكتم بعض ما يختلج في فؤاده ثم شعر بالندم يعز في قلبه فأرسل الى أكاكي ، وارتد الرسول ينبئهُ بموت الرجل فساورته الافكار السوداء وأراد هو ان يدفعها عن نفسه فانطلق الى دار صديق ليخرج عن رزانته عمراً من عمره . لقد كانت ليلة جميلة وأصدقاء ظرفاء ، ذاق فيها حلاوة السمر ، وامعن بلذة الشراب والطعام . . . ثم خرج في لشوته يريد صديقه ايقان ايفانوفا ليستمتع منها بلذة اخرى ، وليذوق حلاوة ثانية ، فهو كان يحبوها بكثير من قرائنه ومن قلبه رغم انهُ كان أبًا وزوجاً كاحسن ما يكون الاب والزوج . وحين اطمأن العظيم في مركبته تدثر بمعطفه الثمين وجلس منتشياً طروباً والمركبة تسير . . . ومضت فترة احسّ بعدها الرجل ان يداً تجذبهُ في عنف ، فنظر فرأى الكاتب المسكين في معطفه البالي . . . انهُ هو ، هو اكاكي اكاكيفتش . . . ! فزلزل الرجل العظيم وامتقع لونه ، ورنّ في اذنيه صوت مرعب «هاها ، لقد استطعت أن اعثر عليك في النهاية ، أنه معطفك الذي اريد ! لقد ابيت ان تساعدني ، فالآن تخرج لي عن معطفك عن يد » لقد كان القائد صعباً قاسياً يعتز بقوته وصلابة عضلاته ، أما الآن فقد ارتجف وسيطر عليه العجز والخور فخلع معطفه وهو يقول للسائق ، « الى الدار ، الى الدار ، اسرع ! » ودخل القائد العظيم عن نفسه فراح يهذي «كيف تجرؤ ؟ أتعلم من هو الذي يحدثك ؟ أتعرف تماماً الرجل الذي تقف أنت امامه ؟ » واهله يعجبون مما يسمعون . اما الشبح فقد اختفى فما عاد يستلب الناس من معاطفهم